موت عظماء الرجال خطب جلل

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأربعين

السنة السادسة - العدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 الموافق 29 أبريل سنة 1942

المؤرخ محمد الدكالي

هذه كلمة جرت بها الأقلام في تأبين عزيز علينا قريب لدينا سقت ضريحه سحائب الرحمة من الملك العلام.

علـى الـدنـيـا الـسـلام فـلا سرور ... يـــدوم بهـــا ولا حي بـــبـــاق
ولا وصــل يــطــول ولا اجــتــمــاع ... ولـــو طـــال المـــدى فـــإلى افـــتراق
أمـــا أبـــصرت مـــا مـــر واتـــبـــاعـــا ... مـــن الـــترحـــال في شـــبـــه اتـــســـاق
كأن الـــقـــوم ركـــب قـــد تـــنـــادوا ... فـــهـــلـــمـــوا لـــلـــرحـــيـــل عـــلى وفـــاق
فـــلـــبى الـــســـابـــقـــون نـــداء عـــزم ... وســـار الـــلاحـــقـــون ذوي ســـبـــاق
وهـــذا مـــفـــخـــر الـــشـــبـــان ولى ... إلى دار الـــكـــرامـــة والـــتـــلاقي
عـــلى فـــقـــد الـــســـعـــيـــد الـــفـــرد حـــزني ... يـــطـــول بـــطـــول حـــسرات الـــفـــراق
ويجـــري مـــن أعـــيـــني نهـــر دمـــع ... يـــبرد مـــا ألاقي مـــن احـــتراق

إن موت الأحباب رزية، وفقدان الجواهر الثمينة مصيبة وانتقال الرجال العظماء إلى دار البقاء خطب جلل. وإن فقيدنا المفدى تعلمون مكانته من المجتمع الإسلامي المغربي وما كان يقوم به من الأعمال العظيمة ويتحمله من المشاق الجسيمة سعيا وراء الصالح العام، واجتهادا في أن ينال المغرب وأبناؤه من نور العلم والعرفان كل مقصود ومرام.

وإن تلك النفس الكريمة والهمة العظيمة ذات الطموح إلى المعالي والتشرف إلى الشرف والسؤدد كانت من مواهب الله لفقيدنا العزيز، فهو نادرة من نوادر عصره، والنوادر إنما تجود بهم الأعصار على قلة، وفي غرابة أطوار، وشذود طباع، وتباين أخلاق بين أولئك النوادر وأهل عصرهم الحاضر. وذلك أشبه شيء بالنبوغ الذي كان يقع في قبائل العرب ينبغ بينهم الشاعر على بغثة فيأتيهم بالعجب من أشعاره وأقواله فتسود به قبيلته ويعتز به قومه ويفخرون به.

وإن العناية الإلهية حبت هذا السيد سعيد بمواهب عظيمة اختص بها دون سائر أقرانه من بني جلدته، فهيأته الأقدار منذ صغر سنه إلى حمل رسالة النهوض إلى المعالي والسعي إلى مدارج الرقي والكمال العلمي والأخلاقي والسباحة في بحار علوم العمران والحياة ذات الأطوار المتناقضة والجولان في المعلومات الكونية واقتطاف أثمارها اليانعة، والافضال على بني عصره من أهل وطنه وسواهم بما اختاره من تلك الثمار الناضجة الحلوة اللذيذة الطعم، السائغة المذاق، ففيما أملاه طول حياته بأقلامه على لسان الجرائد العامة والمجلات من أقوال عجيبة ونصائح غريبة وإرشاد إلى اطراح الخمول وتنبيه على الأخذ بكل ما ينفع الحياة في الحال والاستقبال، وترك السفاسف ومجانبة زخرف القول واتباع الصدق في الأعمال والأقوال، ما بدل على عظيم همة الفقيد وشرف روحه رحمه الله، فإن الرجل كان في أقواله واعظا مرشدا والناس عنه في غفلة من توقد نار غيرته على أمته وأسفه على ضياع الأموال والعقول والأخلاق والتربية في غير طائل، وطالما أبدى عجبه رحمه الله من هذا السبات العميق الذي أقام فيه المغرب غير شاعر بأمراضه وعلله وغير ملتفت إلى تلافي الحال باستعمال طرق العلاج النافع ألا وإنه العلم الصحيح الذي يداوي أدواء الجهل البسيط والمركب، فكنت تراه - جدد الله عليه سوابغ الرحمة - حيران مفكرا فيما يوصل إلى علاج الشعب وتلافي أمراضه ، ولم يكن لديه دواء نافع يكافح به داء الجهل إلا مقالاته الإرشادية وعظاته النافعة المتواصلة التي كان يفرغها في قالب الأقوال

الجرائدية السيارة والمجلات الطائرة بأجنحة البريد إلى أقطار الإقليم وبلدانه ، فقد أسمع الصم ووعظ العمي وقرع الغافل وأشعر الذاهل المنغمس في دنياه بما يحيط به ويترصده من عواقب الجهل والغرور ومصائبهما وطالما نادى لو أسمع حيا.

فإن قيل إن انفراد هذا السيد بهذه المزايا العجيبة والخصائص النفسية الغريبة مما يبعث على العجب إذ نجد له أقرانا وخلانا وأصحابا من بني عصره في سنه ورفاهية عيشه ومشاركته في تعاطي معلوماته ومعارفه، ولكنا نجد الفرق بينه وبينهم بعيدا جدا، فهل لذلك من سبب؟ نقول نعم، إن من الأسباب التي كونت ذلك العقل العجيب وتلك النفس العظيمة والهمة العالية ذات الطموح إلى المعالي هو أن هذا الولد السعيد أنجبته أسرتان جليتان، أسرة آبائه الحجيين آل الشيخ الصالح سيدي أحمد حجي رضى الله عنه، وأسرة والدته بنو المسطاسي السلويون. فأما أسرة آبائه فالعلم فيها والصلاح متصل الحلقات، لا يخلو منها عالم وولى في غالب الطبقات، وأسرة جدوده لأمه العلم فيهم متوارث والأخلاق الفاضلة متعارفة - من عاش في الوسط الزاكي زكى خلقا.

أضف إلى ذلك ما يسره الله لهذا الفقيد المفدى من البواعث الكمالية التي أضافها إلى ثقافته ودراسته المغربية، وذلك رحيله إلى بلاد سورية فحل بمدينة بيروت اللبنانية وأضاف إلى معلوماته المغربية ثقافة شرقية لبنانية فاستساغها وهو في عنفوان شبابه فاتسعت مداركه وعظم عقله ورأى وخالط وعاشر عالما شرقيا عربيا يتكلم بلغة عربية صريحة هى لسانه الدارج، لا فرق بينها وبين لغة الكتب إلا في يسير ألفاظ، ورأى الرجال والنساء والبنين والبنات يتخاطب الكل بلهجة عربية فصيحة نظما ونثرا في المنازل والأسواق والمنتديات والمجمعات فضلا عن المدارس التي هى مركز تلك اللغة الشريفة ومترب الأدب الشرقي القريب العهد من النهضة والتجديد والبعث من مرقد الخمول إلى ميدان الحياة العصرية؛ وأعظم بشاب مغربي ذكي العقل وقاد القريحة مثقف اللسان مهذب الطباع يدخل هذا المجتمع الشرقي السوري اللبناني المستنير فيتأثر عقله بهذا المشهد المدهش

حيث يرى الفرق الشاسع بين هذين القطرين.

فهناك استملى فقيدنا المرحوم كماله ومن هناك استكمل جماله وأتم تهذيبه وأعماله فتلقى العربية غضة من لسان بعثيها من مرقدها بعد طول سباتها؛ فاللبنانيون لهم الفضل في نهضة اللسان العربي في ربوع الشرق الأدنى ومصر بعدما كادت اللغة العربية أن تموت هناك وأن تدرج في أكفانها، فعاد لنا شبابها بعد الهرم وحياتها بعد الإشراف على العدم؛ فهناك تسمع اللبناني يقول في خطبة كتاب: الحمد لله الذي جعل المقامات لأهل الكرامات حمدا يزلفنا إلى المقر الأسنى، ويتحفنا ببركات أسمائه الحسنى.

عاد السيد سعيد إلى المغرب عامر الوطاب، مملوء الصوان، مستكمل الأدوات، إلا أنه لا يرضيه كل ذلك بل أعز ما لديه أن يرى شعبه راقيا كالعالم الشرقي وأبناء وطنه يتقدون حماسا وطموحا إلى المعالي، فألقى نظرة على الجيل المغربي والوطن العزيز فوجد الكل في غيبوبة عما يستقبله وفي غفلة عما ينتظره فأخذ العهد على نفسه أن يعمل بجده واجتهاده لإفاقة النائم، وتنبيه الكسلان الخامل، فسار على مهل ودأب ناصحا واعظا واستمر يكد نفسه ويجدها ليريح غيره، فما زال يتحمل أثقالا وينحث من الطباع الغليظة جبالا حتى تعبت روحه وحمل فوق طاقته؛ وفي الأمثال الدارجة من حمل فوق طاقته ظهر العجز فيه فأدى ذلك إلى تعب نفسه وانحراف صحته، وكان أمر الله قدرا مقدورا.

كل ذلك تضحية في سبيل البلاد وبنيه، قدس الله روحه في النعيم المقيم وأسكنه الفردوس الأعلى والمقر الأسنى.